هـ - الأسلوبيّة الإحصائية

يسهم الإحصاء إلى حد كبير في تحديد الظواهر المدروسة ولذلك تستعين به كثير من العلوم والمناهج لتقارب الموضوعية العلمية ولذلك تتوسل المقاربة الأسلوبيّة الواقع الإحصائي للنص، تمهيدا لبلورة معطيات تدل على صفات الخطاب الأدبي في أدواته البلاغية والجمالية، وتصب فيما يسمى «التعليل الأسلوبي» والمقاربة الأسلوبيّة تتدرج من الإحصاء إلى البنية، ومن البنية إلى الاستنساب، ومن الاستنساب إلى الوظيفة، فالبنية المناسبة هي البنية ذات : الوظيفة.

إنّ الإحصاء الرياضي في التحليل الأسلوبي هو محاولة موضوعية مادية في وصف الأسلوب، وغالبا ما يقوم تعريف الأسلوب فيها على أساس محدد وقد اعتمد هذا التوجه (فول فوكس Fucks) موضحا أهدافه المنهجية بقوله: «نقيم الأسلوب كما يأتي في نطاق المجال الرياضي بتحديده من خلال مجموع المعطيات التي يمكن حصرها كميا في التركيب الشكلي للنص». وحينما يتم تحديد الأسلوب بأنّه تردّد الوحدات اللغويّة التي يمكن إدراكها شكليا في النص، فهذا يعني أنّه يمكن إحصاء هذه الوحدات اللغوية وإخضاعها للعمليات الرياضية. إن النسبة بين عدد ورود الكلمة في نص ما والمجموع الكلي يمكن تمثيلها عدديا، وهذا يسهل مقارنتها بالنصوص أخرى، وقد أحصى «فوكس» وغيره في مجموعة من النصوص متوسط عدد الكلمات في كل جملة ومتوسط عدد المقاطع في كل كلمة، ويتم وضع متوسط عدد المقاطع في كل كلمة –بناء على ذلك في أعلى الشكل ومتوسط عدد الكلمات في كل جملة في يمين الشكل، هكذا يمكن وضع كلّ نص في الرسم البياني على النقطة المحددة لخواصه، وينشأ عن توزيع النقط فرعان كبيران : فرع مناسب لمبدي الأدب الجميل من ناحية، وفرع للكتاب الآخرين من ناحية أخرى، وقام بعمل احصائيات أسلوبية مشابهة من ناحية التمييز بين المؤلفين، وتمتاز نتائج مثل هذه المناهج بالموضوعية التامة، كما أنّه يمكن تمثيلها كتابيا بوضوح، ونقصد بذلك المناهج البسيطة التي ذكرها «زمب Zemb» وأطلق عليها مصطلح «القياس الأسلوبي

«Stylometrie» وفيه تحصى كلمات النص وتصنّف حسب نوع الكلمة، ويوضع متوسط هذه الكلمات على شكل نجمة، وبناء على ذلك تنتج أشكال ونماذج متنوعة يمكن مقارنتها بعضها مع البعض الآخر، كما يمكن تصنيف مؤلفي النصوص طبقا لها أما أنوع الكلمات فهي :

1 – الأسماء 2 – الضمائر 3 – الصفات 4 – الأفعال 5– الظروف 6– حروف الجر 7– الحروف الرابطة (حروف العطف وغيرها) 8– الأدوات الرابطة (الصلات – أدوات الشرط)

ويمكن تمثيل ذلك في الشكل التالي :

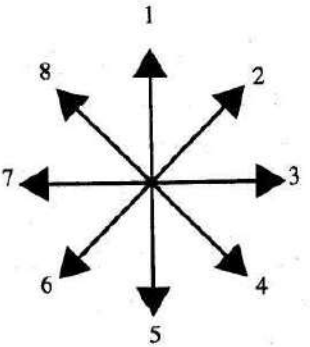

وبتطبيق هذا المنهج على أعمال الكتاب الفرنسيين الثلاثة: باسكال، فاليري، مارسيل، نتجت الأشكال الثلاثة التالية :

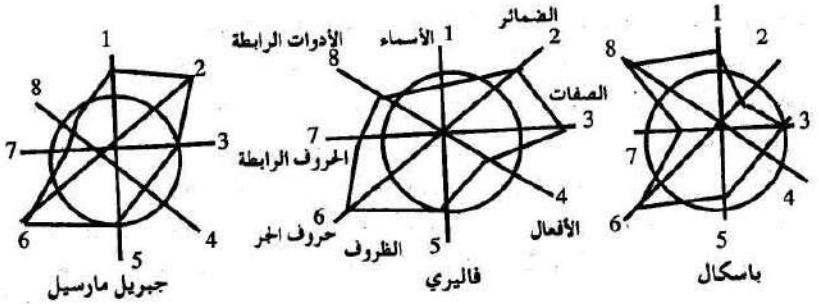

ولا تفصح الأشكال نفسها عن أي تفسير أسلوبي، ولكن بعض الدراسات التحليلية الأسلوبيّة، التي تعتمد على المنهج الإحصائي الرياضي، تناولت ظواهر نحوية لها أهمية خاصة فقامت بإحصاء نسبة الأفعال إلى الصفات من حيث العدد، كما قامت بقياس معدلات الأفعال بالنسبة لعدد كلمات الجملة. . الخ[233]. وسجلت نتائج علمية هامة، يقول برنلد شبلنر: «ومن أهم الميزات التي تختص بها الدراسات التي تعتمد على الكمية استخدام الحاسب الآلي في التحليل الأسلوبي، ولقد حققت المناهج الإحصائية الرياضية في التحليل الأسلوبي نجاحا كبيرا في مجال التحقق من شخصية المؤلف، وهذا يعني بيان صاحب العمل الأدبي في النصوص مجهولة المؤلف، كذلك النصوص التي يثار خلاف حول مؤلفها.»[234] ويبدو لي أن عملية الإحصاء الأسلوبي لتحديد النصوص المجهولة المؤلف ونسبتها إلى صاحبها؛ عملية غير مضمونه البتة، وبخاصة إذا كانت النصوص الأدبية متشابهة، ومؤلفوها كثر، وينتسبون إلى حركة أدبية واحدة، و إن كنّا نعتقد بعثور الباحث على ملامح أسلوبية لكاتب من الكتاب، إذا كان الباحث مدمنا للقراءة لهذا الكاتب أو ذاك فيمكنه تلمّس ملامح أسلوبه، كما يمكن للباحث الأسلوبي المعتمد على الإحصاء تصنيف جملة من النصوص ضمن مدرسة أدبية معينة. وفقا لغلبة عناصر أسلوبية وكثافتها في هذه النصوص الأدبية، وعليه يمكن القول بأن المنهج الإحصائي الأسلوبي جدير بالإهتمام، وقد احتفى النقد الأسلوبي العربي الحديث بالمنهج الأسلوبي الإحصائي وكان من روّاد هذا المنهج في العربية الباحث سعد مصلوح والباحث محمد الهادي الطرابلسي، وأشار الدارسون العرب إلى هذا المنهج ضمن حديثهم عن الاتجاهات الأسلوبيّة.

لابد من قول شيء عن الطرق الإحصائية للبحث، التي أصبحت الآن أكثر شهرة باستعمال الكمبيوتر ولعل أغلب طلبة الأدب يعافونها لأنهم من صنف محطمي الآلات بطبيعتهم، كما لاحظ «لورد سنو» هناك شعور من ناحية بأن هذه الطرق عديمة الحس وغير ملائمة للثقافة الأدبية بل يصعب تفكيك بنية الأسلوب بمثل هذه الوسائل، ومن الناحية الأخرى فإن طلبة الأدب غير راغبين في خضوع بحوثهم للتحقيق الإيجابي، إن المجادلات بشأن تعيين الحدود ليست في العامة أمورا عقلانية، ولكن هناك بعض الأمثلة الواقعة التي لابد من توجيهها ويمكن

إعطاء بعض الأجوبة فلو سألنا : هل للمعلومات الإحصائية صلة بد راسة الموضوع؟ فلا بد أن يكون الجواب«نعم» بتحفظ، ويكاد يكون جميع النقد حتى ذلك المرسوم بأنه إنطباعي يستخدمها بطريقة غير رسمية وغير محكمة[235] وعلى الرغم من كل هذا فإن للإحصاء أهمية بالغة في تحديد خصوصية الأسلوب يقول محمد الهادي الطرابلسي : «ليست الأسلوبيّة جديدة إلا بإندراجها في إطار علمي خاص، فالكثير من أسسها مركز من عهود بعيدة، علاوة على أن أية نزعة من نزعات شرح النصوص لم يخل –منذ القديم– من اتجاهات أسلوبية.

فكل شارح لنص من النصوص. كان دارسا أسلوبيا إن قليلا أو كثيرا، لكن هذا الصنيع لم يواكبه وعي لأن الشرح في بعض جوانبه إنّما هو من قبيل الدراسة الأسلوبيّة»[236] إنّ هذا القول فيه من التعميم الشيء الكثير، وفيه من المجازفة ما يجعلها نقول إن هذه الأحكام كان من غير المتوقع أن تصدر عن باحث ودارس متمعن وموضوعي مثل محمد الهادي الطرابلسي، ولعلّ حرصه على المزاوجة بين الجانب العلمي والجانب الذوقي في الدراسة الأسلوبيّة هو الذي دفع به إلى القول : «إن الدراسة الأسلوبيّة التي تعنى بمعالجة الكلام المكتوب عملية نقدية، تتركز على الظاهرة اللغوية، مادة الكلام الأساسية، وتبحث في أسس الجمال المحتمل قيام الكلام عليه، لذلك يشترط في المقدم عليها ثقافية مزدوجة لغوية أولا لأن مادة الكلام هي اللغة وأدبية ذوقية ثانيا، لأن جوهر الكلام هو الجمال ونعني بالثقافة الأدبية الذوقية. توافر الإلمام بأكثر مايمكن مما يعد كلاما جميلا في تراث اللغة المدروسة... ذلك لأن الدراسة الأسلوبيّة إن بقيت تنشد العلمية في منهجها فلا تتخلص تماما من ربقة الإعتبارات الذوقية، و إنما لمجرد تهذيب هذه الإعتبارات وللتحكم بعض الشيء في مستعصياتها، وماالتقنين الجاف والعلمية المطلقة لها فضلا عن كونهما غير ممكنين فيها» [237] يقول محمد الهادي الطرابلسي في معرض حديثه عن سبيل الموضوعية في الدراسة الأسلوبيّة أن الإحصاء شرط هام يستعان به في هذا المجال «وقوام الإحصاء التجريد الكامل لمختلف استعمالات الظاهرة اللغوية في النص المدروس، فتبويبها فتصنيفها حسب أولويات المفعول إعدادا لاستنطاقها. ولا يحتاج أمر الإحصاء إلى مزيد

تحليل رغم تنوع مظاهره وتعدّد شروطه، فإن دخل في حياتنا اليوم في جميع المجالات، واكتسب شعبية لانظير لها، لأنه لايعدو – في أبسط مظاهره – أن يكون لعبة بسيطة الأحكام... و«لقد غدا الإحصاء» طريقة في العمل لا يستغنى عنها أي علم، وبعضها لايكاد يعتمد سواها» (238) ومع أشارته إلى جدوى الإحصاء في الدراسة الأسلوبيّة إلا أنه يحجم عن ذلك قليلا ولا يقره معزولا عن الإعتبارات الذوقية فهو يقول «وإذا كان الاستناد إلى الإحصاء ذا قيمة في فض بعض المشاكل المنهجية، فيجيب الإقرار بأنّه ليس مأمون العواقب دائما. إن شأن عمليات الإحصاء المتجه إليها في الحديث، هو شأن عوامل الانطباع المحتكم إليها منذ القديم، قد تفيد ولكنها وحدها لاتغنى.

فسطحية الإحصاء وجزاف الانطباع، نفس الخصال فالأول يجهز حيثيات والثاني يجهز أحكاما.. . فالأول منفردا إطار بلا مضمون والثاني منفردا مضمون بلا إطار. «وبعد لعيوب الإحصاء وعيوب الإنطباع وحسنات الإحصاء وحسنات الإنطباع، يقترح السبيل إلى توقي الزلل، في العمل، إنما هي في الإعتماد عليهما معا، فلا يكون الإحتكام إلى أحدهما إلا إذا توافر في ثانيهما ميزان، يشهد بصحة، ماتوافره في الأول. وبهذه الصورة يقضى على جانب الشكلية في الإحصاء وجانب الاعتباطية في الإنطباع وتستغل طاقة كل من الطريقتين بوجه علمي مثمر(239).

لقد قسم محمد الهادي الطرابلسي بحثه «في منهجية الدراسة الأسلوبيّة» إلى قسمين قسم نظري عرض فيه العلاقة بين جانب الإنطباع وبين جانب الإحصاء، وقال بالمزاوجة بينهما، لتوخي سبيل الموضوعية. وقسم تطبيقي درس فيه نموذجا متمثل في جملة رودت في وصف أكول من كتاب «البخلاء» «للجاحظ» يقول فيها: «إذ أكل ذهب عقله وجحظت عينيه، وسكر وسدرو انبهر وتربد وجهه، وعصب ولم يسمع ولم يبصر» (240) وبعد عرض تفسيري بسيط لهذه الصورة يشرع في تحليلها أسلوبيا، ويبحث عن مولداتها الموضوعية، و يقف عند عناصرها الوظيفة المتميزة، فجوهر كامل التركيب.

1 – أحداث عشرة هي عنوان حركة نشيطة.

2 – هذه الأحداث مسندة إلى فاعل هو الأكول أو بعض متعلقاته (عينه، وجهه) فالأكول الموصوف هو وحده كامل المشهد.

3 – القضية في جميع هذه الأحداث هي عملية الأكل : فعل جملة الظرف يخبر عنها وأفعال جملة الجواب تخبر عن نتائجها، فالأكل وحده الذي يقتضي من الأكول استفراغ الجهد، وهو وحده الذي يملأ حياته.

4 – سبعة من هذه الأفعال ثلاثية مجردة فقط مزيدة، إلاّ أن الزيادة فيها ليست ذات بال (انبهر وتربد» تفيد الزيادة فيهما وقوع الفعل و (لم يبصر) تفيد الزيادة فيه معنى المجرد، فالمشهد معرى من المستندات والحيثيات.

5 – كل هذه الأفعال لازمة تكتفي بفاعل واحد، هو الأكول أو بعض متعلقاته، فهي إذن أحدث منطلقة منه، راجعة إليه، بل عليه.

6 – اشتراك كل الأفعال – من حيث الدلالة اللغوية – في فقدان كل وسائل الصلة – العالم الخارجي والانغلاق على النفس – فقدان المعرفة الحسية (لم يسمع، لم يبصر..)

فقدان المعرفة الذهنية (ذهب عقله...)

فقدان الوعي عامة (سكر، سدر..)

فقد أصبح الأكول أزمة برأسها أو كوكبا بذاته وقد خرجت كامل الصورة في جملة تلازمية طريفة غير متوازنة الشقين :

1 – كل فعل فيها يشكل جملة تشترك مع بقية الجمل في البساطة المثلى واطراد الأفعال بهذه الصورة يعرب عن تولد بعضها عن البعض الآخر.

2 – وكل هذه الجمل تشترك طبعا في الفعلية الخالصة المصورة لحركة مسترسلة.

3 – إلا أن جملة الظرف تتكون من جملة واحدة (أكل) بينما تتكون جملة جواب الظرف من تسع جمل متعاطفة.

وعدم التوازن بين الحدث اليومي البسيط (أكل) الذي في الشق الأول وبين مجموعة الأحداث الجسام التي في الشق الثاني، تعرب عن جدية الموقف الذي يقفه الأكول من عملية الأكل، فالأكل عنده قضية حياة أو موت، هي عنده عملية تعادل عملية الجماع التي تجد معناها السامي في كونها أزمة خلق وفناء، تجسمها اللذة والعذاب، أو هي عنده شطحة من شطحات الصوفية التي تبلغ أوجها في الفناء في الله أو الفناء المجرّد.

هذه الأحداث – علاوة على ذلك تخضع لموسيقى خارجية وداخلية متميزة يصور الخارجية منها الرسم التالي :[241]

إذا أكل
ذهب
جحظت عينه
سكر
سدر انبهر
تربد وجهه
عصب
لم يسمع لم يبصر

نضيف إلى التقطيع المتوازي الملحوظ في بنية الجملة والقافية الداخلية المتخيرة ترديد صوت الراء وهو أسناني بين الشدة والرخاوة مكرر مائع واستعمال صوت السين والصاد بوفرة (وهما أسنانيان، رخوان، صفيريان) لنتبين حالة الطرب والغيبوبة التي انقلب إليها الأكول[242]

لقد نقلنا دراسته الأسلوبيّة لهذه العبارة كاملة : لنتمكن من التعليق على بعض الجوانب التي أشار إليها الباحث دون أن يحدد طبيعتها ودلالتها ومنها على سبيل المثال لا الحصر قضية «الموسيقى الداخلية» التي يشير إليها بالاسم فقط، ولعل انتشار هذا المصطلح بين الدارسين في العربية ورواجه بكثرة في أغلب الكتب النقدية[243] هو الذي دفع الباحث إلى الإشارة إليه دون أن يحدد خصائص هذه الموسيقى الدخلية. ودون أن يشير إلى مميزاتها، وما الفرق بينها وبين الموسيقى الخارجية في النص المدروس، والواقع أن القصد من هذا

المصطلح هو الأثر الذي يتركه النص الأدبي في نفس المتلقي لأننا نعلم بأن الموسيقى أصوات والأصوات ظاهرة فيزيائية خارجية وليست داخلية كما هو شائع في كتب النقد العربية، واللغة أصوات وقد تحدث الموسيقى من خلال تكرار صوت أو أصوات من المخرج نفسه والصفات نفسها. ولكنها تظل موسيقى خارجية تحدث انسجاما، وإيقاعا في النص، وتعطيه نوعامن التوالف والتواتر. وهذا ما يدعى بالموسيقى الخارجية، ولا وجود للموسيقى الداخلية نهائيا. ويرجى أن يحذف هذا المصطلح من الدراسات النقدية لأنه مضلل وفاقد لمبررات وجوده.

يقول يوسف حسين بكار : « موسيقى القصيدة في النقد الحديث قسمان : خارجية يحكمها العروض وحده وتنحصر في الوزن والقافية، وداخلية تحكمها قيم صوتية باطنية أرحب من الوزن...»[244] ويعرض هذا الباحث آراء بعض النقاد المعاصرين في هذا المبحث ويحاول تعميق هذا الرأي في تفسيره لهذه الآراء وتعليقه عليها، ولكن الملاحظ على المبحث كله أنه غير مقنع، لأنه لم يتناول ظاهرة الموسيقى في النص الشعري تناولا علميا، بدليل مجاراة الباحث لما ورد في دراسات غيره من الدارسين، فهو وغيره يفهمون من الموسيقى الخارجية الوزن والقافية ومن الموسيقى الداخلية القيم الصوتية الباطنية وهي أرحب من الوزن والقافية كما ورد في الفقرة السابقة، وعدم الموضوعية في دراسات هؤلاء النقاد الذين يشير إليهم الباحث تتجلى في التقسيم التعسفي الذي أقاموه للظاهرة الموسيقية في القصيدة أو (النص الشعري)، لأن الظاهرة الموسيقية كل متكامل في وحدة بنيوية وظيفية في النص الشعري وهي تتشكل من الوزن والقافية والصيغ الصرفية والأصوات والتكرار والجناس، وسوى ذلك، فجميع هذه العناصر تسهم في التشكيل الموسيقي للنص الشعري، وجميع هذه العناصر لاعلاقة لها بما دعاه هؤلاء النقاد بالموسيقى الداخلية لأنها وحدات لغوية واللغة أصوات والصوت ظاهرة فيزيائية قابلة للوصف والتحديد مثلها مثل الألحان أو المقاطع الموسيقية أو السمغونيات يمكن وعزفها وإخضاعها للدرس العلمي.

– أقام محمد الهادي الطرابلسي بحثه «خصائص الأسلوب في الشوقيات» على أساس لغوي أسلوبي ينطلق من النص ذاته وقد استفاد الباحث من

معطيات اللسانيات، وتوسع في دراسة شعر شوقي، فكان بحثه جادا وعميقا ويبدأ الطرابلسي بحثه الأسلوبي الإحصائي من المقدمة وبالتحديد في الصفحة 13 من كتابه يقول : «قد عرف الناس من شعر شوقي– عدا مسرحياته الشعرية– ديوان الشوقيات في أربعة أجزاء ويضم– في طباعاته الأخيرة– 320 11 بيتاً إضافة إلى أرجوزته «دولة العرب وعظماء الإسلام» في نشرة مستقلة وردت في 1395 بيتاً، وقد نشر محمد صبري «الشوقيات المجهولة» في جزئين سنتي 1961–1962 ضمنهما ما يقرب من 4700 بيتاً من الشعر، وهو مع ذلك لم ينشر كل ما اهتدى إليه من شعر شوقي، قال: «وقد حذفنا المديح من قصائد كثيرة.. وأخيرا أغفلنا قصائد كثيرة غير منشورة في الديوان ولكنها ليست من جيد أو مما يستسيغه مريدوه، ولم ننشر من «المحجوبيات» إلا قصائد معدودات عليها مسحة شوقي. وبالجملة أسقطنا كل ركيك أوغث»[245] ولم يكن محمد صبري قد ظفر بكل شعر شوقي المجهول، قال : «ولا تزال هناك قصائد ضائعة لشوقي لم نتمكن من الاهتداء إليها».

ويواصل محمد الهادي الطرابلسي حديثه فيقول : «فإذا جمعنا تحصلنا على مجموع يقرب من 17500 بيتاً معروفاً من شعر شوقي، وهو عندنا الرقم القياسي الّذي أمكن لشاعر عربي أن يصل إليه شعره إذ هو تجاوز المقدر من مجموع أبيات ابن الرومي من (16000 إلى 17000) والذي اتخذ مثالا للخصب في الشعر العربي، ويذكر جمال الدين بن الشيخ في كتابة «الشعرية العربية أرقاما وصلت إليها أبيات شعراء آخرين منها 16127 بيتاً للبحتري ويقول أما إذا ضمنا إلى المجموع المذكور عدد أبيات مسرحه الشعري (6179 بيتاً) وأخذنا بعين الاعتبار ما أغفله محمد صبري وما لم يزل ضائعا من شعر الشاعر، فإن الحاصل يتجاوز أنذاك 23.500 بيتاً وبذلك يكون شوقي أكثر شعراء العربية القدماء والمحدثين خصبا على الإطلاق ثم يقول : كل هذا الشعر سيكون عمدتنا العمل ما عدا المسرح الشعري وأرجوزة «دول العرب وعظماء الاسلام» فقد أخرجناهما لأنهما يخضعان لمقتضيات فنية غير التي يخضع لها شعر الديوان، وهما بذلك يهددان كيان الوحدة التي يخضع لها شعر الديوان والتي إذا لم نحترمها فتحنا بابا للتقديرات الاعتباطية والأحكام الجازفة، أما الجداول التي سنعد والنسب التي سنضبط والأرقام والشواهد التي سنذكر في أعطاف العمل فنعتمد فيها شعر«الشوقيات» في أجزائها الأربعة المتداولة والتي تصل أبياتها إلى 11320

وأشعارها إلى 370 ومعدل القصيدة فيها 31، وذلك أن الشوقيات المجهولة لم تتهيأ لعلم الناس بالقدر الذي قد يتصور، بل وئدت في السنتين اللتين صدر فيهما لأول مرة – وآخر مرة إلى حد الآن– جزءاها (1961– 1962) بسبب خروجها في نسخ قليلة جدا كما لو كان ذلك للإستهلاك المحلي المحدود، وهي علاوة على ذلك بين أيدينا اليوم في وضع تحتاج فيه إلى مزيد من التحقيق. ويقول في مقدمة البحث : «وقد كانت مادتنا ثرية ومتنوعة الوجوه فلم نجز لنفسنا تقديمها مفككة الأوصال، ولما كانت همتنا متعلقة بإبراز خصائص الأسلوب على هيئاتها في الشوقيات «لم نشأ في الإخراج أن نخضعها إلى تخطيط مسبق قد لا يلائمها فعمدنا إلى استنباط تخطيطنا منها وذلك بأن تأملنا فيها من حيث هي كلام مزروع في كلام فتبينا أن الكلام– مهما كان مستواه لايعدو أن يكون وليد عناصر ثلاثة : هي أقسام تحدد أنواعه، وهياكل تنتظم أشكاله، ومستويات تستوعب أحواله، فركزنا عملنا على ثلاثة أقسام كبرى، درسنا في القسم الأول أساليب مستويات الكلام، وفي الثاني أساليب هياكل الكلام، وفي الثالث أساليب أقسام الكلام، إن لغة تعبرّ عن جوانب عقلية وانفعالية يبدو فيها الخلق والإبداع، واللغة المستخدمة على هذا النحو تمثل أسلوبا بعينه، فالأسلوب هو مايبدو في العمل اللغوي من تصوير مؤثر للجوانب الإنسانية في اتساعها وعمقها عن طريق استخدام طاقات اللغة، وإذا كان علماء اللغة يهتمون بجميع أنماط التنوع اللغوي كالتنوع التاريخي والإقليمي والإجتماعي، فإنّ الأسلوب يعدّ أحد أنماط هذا التنوع، إن تحليل الأسلوب ليس إلا طريقة من طرق النظر في اللغة(246).

إن التحليل الإحصائي للأسلوب يهدف إلى تمييز إلى السمات اللغوية فيه وذلك بإظهار معدلات تكرارها ونسب هذا التكرار، ولهذه الطريقة في التحليل أهمية خاصة في تشخيص الاستخدام اللغوي عند المبدع وقد نهج محمد العبد في بحثه «سمات أسلوبية في شعر صلاح عبد الصبور» هذا المنهج فأقام البحث على أساس خطوتين متتابعتين متكاملتين.

الأولى : الوصف اللغوي المجرد للمثيرات اللغوية ذات القيمة الأسلوبيّة، وقد لجأ الباحث إلى الإحصاء لقياس معدلات تكرار المثيرات أو العناصر اللغوية الأسلوبيّة : قلة وكثرة، واستعان في ذلك بالدراسة الأدبية التي تساعده على

تحديد النص المعيار الذي يقارن به نصه المدروس، ويكون النص المعياري بمثابة الخلفية للنص المدروس، وقد يجعل الباحث من خبراته الماضية أساسا للمقارنة.

الثانية : وصف التأثيرات الإخبارية الدلالية والجمالية لتلك المثيرات، ويضاف إلى ذلك تحديد قيمها الأسلوبيّة في إبداع المعنى سواء من خلال الصيغ التي تصاغ فيها الخبرات والتجارب أو من خلال التراكيب اللفظية التي تقدم إمكانات مساعدة على إبداع المعنى من خلال اجتماع الألفاظ في وحدة عليا، وقد اعتمد محمد العبد الشروط الثلاثة التي حددها «زايدلر» لبيان نظام القيمة وهي :

1– الإنطلاق من معرفة اللغة، فعن طريق اللغة ذاتها يمكن الإقتراب من القيم الأسلوبيّة بوصفها صياغة للشعور الإنساني بالعالم.

2– تأمل الجانب الإنساني في صورته اللغوية، لا تأمل اللغة بوصفها بنية شكلية منفصمة عن صورتها الإنسانية أو تأملها بوصفها نظاما من العلاقات يمثل مواصفات لغوية خارجية.

3– النظر إلى فن اللغة بصفته منظومة من الطاقات الأسلوبيّة والعناصر الأسلوبيّة.

ومن هذا المنطلق استطاع محمد العيد أن يحدد العناصر والمثيرات اللغوية الأساسية ذات القيم الأسلوبيّة في شعر «صلاح عبد الصبور» وحصرها في النقاط التالية :

1– التثنية

2– التأنيث

3– التصغير

4– الفعل

5– الصفة وقيمتها الأسلوبيّة في المزاوجات المجازية

6– رمزية الألوان

7– المزاوجات الاسمية وقيمتها الأسلوبيّة

8– مزاوجات اسمية خاصة

9– التأثر بلغة الحياة اليومية

10– التكرار وقيمته الأسلوبيّة.

وغني عن البيان تلك المثيرات التي تختلف فيما بينها في معدلات تكرارها، وفي قيمتهاالأسلوبيّة على النحو الذي نراه في تفصيل كل عنصر أو مثير منها على حدة، وذلك في ضوء المفاهيم والأفكار السابقة، الأسلوب هو ما يبدو في العمل اللغوي من تصوير مؤثر للجوانب الإنسانية في اتساعها وعمقها عن طريق استخدام جميع طاقات اللغة[247]، وإذا كان علماء اللغة يهتمون بجميع أنماط التنوع اللغوي كالتنوع التاريخي والإقليمي والاجتماعي، فإن الأسلوب يعد أحد أنماط هذا التنوع، وتحليل الأسلوب ليس إلا طريقة من طرق النظر في اللغة.

وقد يلجأ الباحث الأسلوبي إلى الإحصاء لقياس معدلات تكرار المثيرات أو العناصر اللغوية الأسلوبيّة، ويسعى التحليل الأسلوبي في النهاية إلى تحديد، السمات الأسلوبيّة للنص الأدبي أو النصوص المدروسة، وتتميز هذه السمات بمعدلات تكرار عالية نسبيا، ولها أهمية خاصة في تشخيص الاستخدام اللغوي عند المبدع، وليس التحليل الإحصائي للنص الأدبي بعيداًعن وصف التأثيرات الإخبارية الدلالية والجمالية لتلك الجوانب اللغوية في النصوص، ويضاف إلى ذلك تحديد قيمتها الأسلوبيّة في إبدع المعنى، سواء من خلال الصيغ التي تصاغ فيها الخبرات والتجارب أو من خلال التراكيب اللفظية التي تقدم إمكانات مساعدة على إبداع المعنى من خلال اجتماع الألفاظ في وحدة عليا.

لقد أصبحت الطرق الإحصائية في الدراسات الأسلوبيّة أكثر شهرة باستعمال الكمبيوتر (الحاسوب) الذي يمكنه أن يسهم إلى حد كبير في تزويد الدارس بمعلومات إحصائية لها صلة بموضوع النص المدروس، وبناء على ما يتوصل إليه الباحث المتتبع لطريقة الإحصاء من ملاحظات فيما يتعلق باستعمال أساليب معينة، وبحسب شيوعها أو عدمه، بحسب الإطناب فيها أو الإيجاز، أو بحسب الإكثار منها أو التقليل من تكرارها، يبني استنتاجاته ويقدم ملاحظاته. أما مدى نجاعة هذه الطريق في التعامل مع النصوص الأدبية، ومدى قدرتها في دراسة الظاهرة الفنية في النص الأدبي فإننا نجيب «نعم» بتحفظ كما

يقول غراهم هاف[248]، خاصة إذا كان الناقد الأسلوبي متمكنا من اللغة التي كتب بها النص، وعارفا بخفاياها ومدركا لطبيعة أساليبها واستعمالاتها وبلاغتها وصرفها ونحوها وعروضها وسوى ذلك يقول في غراهام هاف : «يكاد يكون جميع النقد حتى ذلك الموسوم بأنّه انطباعي، يستخدم بطريقة غير رسمية – (يقصد المعلومات الإحصائية) – وغير محكمة ولو أن ناقدا أبدى ملاحظة عن أسلوب، «جونسن» الطباقي، فإنه يعني في النهاية أنه يوجد طباق أكثر في قطعة نمطية لجونسن أكثر مما في قطعة نمطية لأديسون مثلا : ذات طول متشابه، إن ذلك أمر إحصائي في نهاية الأمر، وعند اختيار عدد من القطع المناسبة والقيام بالحسابات الضرورية فإن النتائج يمكن التعبير عنها بصورة حسابية كمعدل إحصائي :

كذا طبقات لدى جونس لكل 2000 كلمة، وكذلك لدى أديسون، ونقول هذا فقط لوضع الملاحظة الأصلية في صيغة عددية[249] ثم يضرب غراهم هاف مثلا توضيحا لقضية الدراسات الأسلوبيّة الاحصائية وقدرتها على دراسة النص موضوعيا، مع شيء من الذاتية فيقول : ماذا كسبنا بالقيام بهذه العملية ؟ (يقصد العملية الاحصائية) – الجواب هنا أقل سهولة، فلوكان هناك أي شك فيما إذا كان أسلوب جونسن يتسم حقا بالاستعمال الحر للطباق، فإن هذه هي الطريقة كلها، وسيكون بيان تكرار الإبتكار الأسلوبي الخاص قد تحقق بالطرق الإحصائية المناسبة، إن في ذلك كسبا أحيانا، وأن الأفكار المتلقاة عن أسلوب فترة خاصة أو عن مؤلف معين تصبح أحيانا لها أساس في الحقيقة عندما تخضع إلى هذا النوع من البحث، في حالة جونسن التي اتخذتُها أنا مثالا اعتياديا أو نمطيا، لا أستطيع أن أرى أننا نكسب شيئا، إذ لا يرتاب أحد بأن جونسن قد أفاد مرارا من الطباق، ولأغلب الأغراض الأدبية فإنّ الملاحظة العامة يمكن أن تستمر من دون الحاجة إلى دقّة إضافية شأن ملاحظة أن اليوم البارد يمكن أن يستمر دون استشارة المحرار، ومن المحتمل أن تكون الأسئلة ذات الأهمية الأدبية ما يأتي كيف استعمل الطباق؟ وماذا فعل به؟ وما الدور الذي يلعبه في الاقتصاد الكلي لعمله؟ ولا ينفتح أيّ من هذه الأمور للبحث الإحصائي[250].

ففي مفهوم الإنزياح يتأكد لقاء هام بين الأسلوبيّة والإحصاء، ولكون الأسلوبيّة هي علم الانزياحات اللغوية، والإحصاء علم الإنزياحات عامة، فمن

الجائز تطبيق نتائج الإحصاء على الأسلوبيّة لتصبح الواقعة الشعرية وقتها قابلة للقياس، إذ تبرز كمتوسط تردّد الانزياحات التي تقدّمها اللّغة الشعريّة بالنظر إلى النثر فالأسلوب كما قال «بيارجيرو» : «الإنزياح» الأدبي يعرف كميا بالقياس إلى معيار، وهذا التعريف يطبّق على الفرد لكن تطبيقه على جنس أدبي ممكن أيضا، فيكون الأسلوب الشعري هو متوسط انزياح مجموع القصائد الذي سيكون من الممكن نظريا الاعتماد عليه لقياس «معدل شاعريّة» أيّة قصيدة كيفما كانت، وتفترض دراسة الأسلوب من الناحية الإحصائية طريقتين: 1– تشخيص الواقعة . 2– قياسها(251).

ويقوم كتاب سعد مصلوح «الأسلوب» على نوع واحد من المعايير الموضوعية هو: القياس الكمي أو التحليل الإحصائيللنصوص، بمعنى أنّه يتبنى الأسلوبيّة الإحصائية في تحليل النصوص الأدبيّة. وبيان ذلك أنّ النّص الأدبي عند مؤلف بعينه أو في جنس بعينه يمتاز عادة باستخدام سمات لغويّة معيّنة من بينها على سبيل المثال لا الحصر:

1– استخدام وحدات معجمية معينة.

2– الزيادة أو النقص النسبيان في استخدام صيغ أو نوع معين من الكلمات (صفات، أفعال، ظروف، حروف جر.... الخ)

3– طول الكلمات المستخدمة أو قصرها.

4– طول الجمل.

5– نوع الجمل (اسمية، فعلية، ذات ظرف واحد، بسيطة، مركبة، إنشائيّة، خبريّة...).

6– إيثار تركيب أو مجازات واستعارات معينة وهذه السمات اللغوية حين تحظى بنسبة عالية من التكرار، وحين ترتبط بسياقات معينة على نحو له دلالته تصبح خواص أسلوبية تظهر في النصوص بنسب، وكثافة وتوزيعات مختلفة، وهذا يبرّر أهميّة القياس الكمي باعتباره معيارا موضوعيا منضبطا وقادرا على تشخيص النزاعات السائدة في نص معين، أو عند كاتب معين، وإن شئت فقل تحديد المميزات الأسلوبيّة في هذا النص أو في هذا الكتاب ويطلق على هذا النوع من الدراسة:

«الأسلوبيّة الإحصائية»[252]وهي إحدى مجالات الدراسة اللغوية الأسلوبيّة المعاصرة.

يقول سعد مصلوح عن الأسلوبيّة الإحصائية في موضع آخر [253]: «إن التشخيص الأسلوبي الإحصائي يمكن اللجوء إليه حين يراد الوصول إلى مؤشرات موضوعية في فحص لغة النصوص الأدبية، وتشخيص أساليب المنشئين، وهذه المؤشرات والمقاييس الموضوعية– في ظنّنا – وسيلة منهجية منضبطة يمكن بها استنفاذ الدرس الأدبي من ضباب العموم والتهويم، وتخليصه من سلطان الأحكام الذاتية التي تفتقد السند والدليل، وتستعصي على التحليل، والتعليل، وهذه الوسائل المنضبطة في الدرس العلمي ليست بديلا للذوق وإن كانت محاولة لعقلنة الذوق، كذلك فإنّ الفحص اللغوي الأسلوبي للنّص ليس بديلا «ألسنيا» إن صحّ التعبير للنقد الأدبي، بل هو نوع من المقاربة المنهجية للغة الأدب، ذو نفع مزدوج لعلوم اللسان وعلوم النقد وهو في الوقت نفسه – مدخل منهجي لا يمكن لنقاد الأدب الخُلّص أن يشيحو بوجوههم عنه، و إلاّ فقدت دراساتهم جانبا كبيرا من منهجيتها وموضوعيتها وجدواها»[254]..

وانطلاقا من هذه الرؤية في معالجة النص الأدبي حاول سعد مصلوح في البحث المشار إليه التعريف بالاستعارة باعتبارها خاصيّة أسلوبيّة مميّزة للصنّاعة الشعريّة، وحصر أهداف البحث في النقاط الآتية :

1– تقديم تصنيف إجرائي للاستعارة يختلف عن التصنيف البلاغي المدرسي السائد وذلك على أساسين : أحداهما دلالي والآخر نحوي.

2– الكشف عن خواص لغة الاستعارة بوصفها سمة أسلوبية مميزة لشعر الشعراء الذين تناولهم بالدراسة والتحليل.

3– استجلاء طبيعة العلاقة بين التركيب النحوي والخواص الدلالية في الاستعارة.

4– الفرز والتمييز بين الخواص المرتبطة بأسلوبية الشاعر الفرد، وتلك التي تتعلق باللغة العربية، وأنماط الاستعمال اللغوي العامة التي لا تخص شاعرا دون شاعر، بل تتجاوز أفراد الشعراء إلى النظام اللغوي الذي

يحكم اختياراتهم ويوجّهها، بمعنى محاولة التمييز بين ما هو لغوي وما هو أسلوبي في صياغة الاستعارة.

أما علي هنداوي فقد اتبع في بحثه «بناء الجملة في ديوان حافظ ابرهيم» منهجا أسلوبيا إحصائيا، تجلى ذلك من خلال إلقائه الضوءعلى أحد قطاعات الجملة الخبرية، وهو الجملة الاسمية مثبتة ومنفية ومؤكدة، وذلك من خلال تحليل الأنماط المختلفة لكلّ نوع منها والأشكال الكثيرة التي تندرج تحت كلّ نمط، من هذه الأنماط، وقد عزّز البحث الذي يتخذ المنهج الوصفي وسيلة بدراسة إحصائية استهدفت إيضاح نسب ورود كلّ نوع من أنوع الجملة الاسمية ونسب ورود كلّ نمط داخل نوعه، وكلّ شكل في نمطه، وذلك لمعرفة أي نمط من الأنماط والأشكال أكثر شيوعا واستخداما لدى الشاعر، وأيها أقل شيوعا، وأشد ندرة بالمقارنة بسواه[255] وقد لاحظ الباحث وجوها لتقارب نسب ورود بعض أشكال الجمل الاسمية في كلّ من ديوان حافظ إبراهيم المفضليات والأصمعيات، ويوضح «علي هنداوي» في بحثه العلاقة بين علم اللغة والنقد، ويرى بأن التداخل بينهما أمر ضروري، والتكامل بين دور الناقد وعالم اللغة لايمكن الاستغناء عنه، ويعرّف في هذا البحث بالجملة الاسمية موضوع دراسته، أنها هي التي يتقدّم فيها الاسم، ويخبر عنه باسم مفرد أو فعل، أو بجملة اسمية أو بشبه جملة، ذلك هو رأي البصريين، أما نحاة الكوفة فقد جوزوا إعراب الاسم المتقدّم على الفعل فاعلا متقدما[256].

ورأى الباحث أن طبيعة بحثه تقتضي تقسيم الجملة إلى قسمين : تقسيم بحسب المعاني العامة وهي الاثبات والنفي والتوكيد، وقد انقسمت الجملة الاسمية المثبتة –1– انقساما داخليا إلى كل من البسيطة، وهي التي لم يسبقها فعل أو حرف من النواسخ والجملة المنسوخة، وهي التي سبقها أحد الأفعال أو الحروف الناسخة.

–2– تقسيم داخلي تفصيلي لكلّ من الأنوع الثلاثة يتضمّن الأنماط الرئيسية الّتي يشملها كلّ نوع، والأشكال التي تندرج تحت كلّ نمط. وباستعراض الأنماط والأشكال التفصيلية – الّتي تمثّل تجريدا لاستخدامات الشاعر، وقد لاحظ الباحث من خلال الإحصاء أن الجملة المثبة كانت أكثر ورودا وجاء الخبر فيها عن المبتدأ المعرّف بنكرة، ويتّفق ذلك مع ما نصّ عليه بعض النحاة من أن ذلك هو

الأصل، كما أن نسبة وروده في ديوان حافظ إبراهيم تكاد تساوي نسبة وروده في كل من المفضليات والأصمعيات[257]، وفي حديثه عن الجملة المنفيّة يرى أن هذا النوع قد تحقّق في حافظ من خلال أربعة أنماط كان ورود الجملة المنفيّة بـ «ليس» ويليه المنفيّة بـ «لا» ثم المنفيّة بـ «ما» ثم المنفيّة بـ «لات» وتفرّد الديوان بثلاثة أشكال للجملة المنفية بـ «ليس»، هي:

1– ليس + خبر شبه جملة مقدّم اسم مصدر مؤول : مثل:

وقلتُ لهم للشيخ فينا مشيئة فليس لنا من دهرنا ما نُنازِلُ

2– ليس + اسم (ضمير الشأن محذوف) + خبر جملة فعلية.

وارصد لي رقيبا ليس يخطئه هَجسُ الفؤاد إذا حاولتُ ذكراكِ

3– ليس + اسم (محذوف) + خبر جملة فعلية.

في شدته طيّ أسرار مرمحة للعالمين ولكن ليس يُفْشيها[258]

وقد تابع الباحث دراسته على هذا المنوال الوصفي الإحصائي، وما يؤخذ عليه أنّه لم يعط تفسيرا لهذه الظواهر اللغوية التي وصفها وأحصاها وكان حريّ به أن يقدّم إحصاءً، مشفوعا بمحاولة تفسير للظواهر اللغوية التي أحصاها.

لقد استخدمت «أوديت بيتي» في دراستها للفصل الأول من كتاب «الأيام» لطه حسين طريقة الجرد الإحصائي للمفردات، وذلك من أجل إظهار مستويات الدلالة المستخدمة، وتظهر الباحثة بهذه الطريقة أنّ طه حسين قد أخضع لغته لمبدأ «الإختيار» ولقد اعتمدت الباحثة على الإحصاء لإبراز مثل هذه الكلمات المحورية فمنها كلمة «صوت» التي تتردّد 10 مرات، وكلمات مؤلفة من اسمين دالة على الحد المكاني كـ «سياج القصب» وتتكرّر 8 مرات وكلمة «عفريت» مع جمعها وتتكرّر 8مرات، وأما بقيّة الكلمات في الفصول الأولى من «الأيام» فهي حقول لمفاهيم هذه النُّوى الثلاث : الصوت والإنحباس والتوق، فمن الأسماء الدالة على الصوت نذكر: صوت نغمة، لفظ، غطيط، صياح الأطفال، غناء النساء ضجيج، وعجيج عند الصباح، دعاء الأب...» ومن الأفعال نورد فعل «ذكر» الذي يتردّد 10 مرات أو «تغن» وتستقطب فكرة الانحباس أسماء مثل: «دار وبيت وحجاب وغرفة وليل وسياج». أما فكرة التوق فتستقطب أسماء مثل : «حركة

ودنيا وقناة وديكة، ووثب الأراتب، واضطراب العفاريت. .» وأفعال مثل : «تخطى وخرج ووصل وكره النوم. . . » ولعلّ مثل هذه الكلمات تشكّل آخر الأمر معجما صغيرا خاصا بـ «الأيام» من جهة، وبـ «طه حسين» من «جهة ثانية» (259)

إنّ الأسلوبيّة الإحصائية تمكّن من دراسة الخصائص الأسلوبيّة المكوّنة للخطاب الأدبي دراسة موضوعية، على أن يسخّر لدراسة النصّ من الوجهة الأسلوبيّة الإحصائية دارس مؤوّل له قدرة على تحليل الظواهر الأسلوبيّة وتأويلها بما لا يخرج عن إطار النص؛ ولقد كان رولينيه ويليك يقول : «يبدو من المستحيل إثبات أن أشكالا وصنعات معينة لابدّ وأن يكون لها في كلّ الظروف آثار معينة أو قيم تعبيرية، ففي التوراة وفي الحوليات نجد لبناء الجملة المعطوفة (و، و، و) المفعول الوئيد للسرد، ومع ذلك فإنّ سلسلة (الواوات) هذه في قصيدة رومانية قد تكون درجات في سلم مسائل مثارة بشكل يكتم الأنفاس، وقد يكون الغلو مأساويا أو مثيرا للشفقة، إلاّ أنّه قد يكون أيضا عجيبا مضحكا، أضف إلى ذلك أن صورا معينة أو خواص معينة في تركيب الكلام قد تتكرر كثيرث وفي سياقات عديدة مختلفة إلى حدّ أنّه لا يمكن أن يكون لها معنى تعبيري خاص»(260)، والملاحظ أن دراسة سيّد البحراوي «لقصيدة أمل دنقل : مقابلة خاصة مع ابن نوح» قامت على المنهج الأسلوبي الإحصائي فهو يقول : «وفي هذا السياق كان لجوؤنا إلى الإحصائيات التي تبدو للبعض منافية للتذوق الأدبي، كان حرصنا عليها نابعا من الحرص على كامل الدقة والموضوعية، في إدراك الخصائص الماثلة في النص، وبالأرقام، ولكن الأرقام لاتعطي دلالة بذاتها، وإنما بوجودها في ذات النص، وبمقارنتها بالأرقام الأخرى على ذات المستوى – وعلى المستويات الأخرى من التحليل، كما أننا لم نترك الأرقام تسيطر على التحليل، بل كانت، وسيلة أو أداة من أدواته فحسب، أداة تساعد على إبراز الخصائص بأقصى موضوعية، وبعد ذلك يقوم التحليل، باكتشاف وظيفة هذه الخصائص في بناء النص وفي دلالته»(261).

تقوم الأسلوبيّة الإحصائية على الوصف الموضوعي والقياس الكمي الذي يستخدم إجراءات التحليل الإحصائي والرياضي، ويرى أصحاب هذا الاتجاه أنالأسلوب هو المجموع الشامل للبيانات القابلة للالتقاط والتحديد الكمي في بنية النص الشكلية، ولقد اتجهت كثير من البحوث إلى تحليل العلاقة بين

المفردات ومعدلات تكرارها وإلى الدراسة الكمية لأطول الكلمات والجمل، فيقيس بعضهم متوسط طول الجمل ومعدل الكلمات فيها ومتوسط طول الكلمات ومعدل المقاطع والحروف المكونة لها ليخلُص من ذلك إلى وضع «رسم بياني» لكلّ نص يتّضح منه قيمة متوسّط عدد المقاطع المكونة للكلمات في الشقّ الأعلى، ومتوسط عدد الكلمات المكونة للجمل في الشقّ الأيمن، بحيث يمكن وضع كلّ نصّ على النقطة المحددة لخواصه في الرسم البياني، ممّا ينجم عنه توزيع النقط على المستويات المختلفة طبقا لنوعين متميزين من الكتاب : أحدهما النثر الأبداعى الأدبي، والثاني يشمل بقيّة ألوان الكتابة[262] وقد أشار «صلاح فضل» إلى منهج «زمب Zemb» [263]، الذي سبقت الإشارة إليه في أوّل المبحث، كما أشار إلى إضافة «أولمان» في هذا الاتجاه حيث أكّد ضرورة إدخال عامل السياق في الإحصاء الأسلوبي، فيصبح أسلوب نص ما، إنّما هو «وظيفة النسبة بين معدلات التكرار لعناصره الصوتية والنحوية والمعجمية ومعدلات تكرار مثل هذه العناصر طبقا لقواعد السياق المشابه».

وعرض الباحث «أولمان نموذج الدراسة المقارنة التي قام بها (أرون) لبحث معجم ثلاث مسرحيات وحدّد بالإحصاء الخصائص الأسلوبيّة والمعجمية لهذه المسرحيات[264]، ويقدّم الباحث «فضل» جملة من التحفّظات والاعتراضات على مايقوم به بعض الباحثين من توظيف للإحصاء في التحليل الأسلوبي غير أنّ جميع هذه التحفظات[265]، يمكن تجاوزها ورفع الحرج عن صاحبها باقتران الإحصاء بتحليل موضوعي للظواهر الأسلوبيّة وتحديد أبعادها الوظيفية والجمالية والدلالية في الخطاب الأدبي.

يقترح صلاح فضل اتباع وجهة نظر «أولمان» في التحليل الأسلوبي الإحصائي لأنه يراه إجرائيا أكثر من سواه، كما أنّه يخلص إلى القول بضرورة مراعاة مبدأين أساسيين للقيام بإجراءات التحليل الأسلوبي وهما : أ– التحديد الكمي ورصد جميع الوسائل الأسلوبيّة المتمثلة في النص الأدبي وحصرها وتصنيفها ثم تقييمها وإبراز الدلالات المركزة عليها.

ب – تفسير هذه الوسائل الأسلوبيّة واستحضار جذورها الذاتية والموضوعية[266].

كما أشار صلاح فضل إلى جهد الباحث سعد مصلوح في التحليل الأسلوبي من وجهة نظر إحصائية وقد اعتمد «مصلوح» منهج «بوزيمان» في تمييز الخواص الأسلوبيّة للنصوص الأدبية، وذلك بإبراز خواصها عن طريق تحديد النسبة إحصائيا بين الكلمات المعبّرة عن حدث والكلمات المعبّرة عن وصف أي نسبة الفعل إلى الصفة(267).

وقد اعترض صلاح فضل على طريقة سعد مصلوح في تحليل الأسلوب ورأى أنّها تتميّز بطابع المصادرة على المطلوب، وهو يختلف باختلاف اللغات، وباختلاف الأجناس الأدبية، والعصور التاريخية، والمعادلة المتبعة في البحث تنتهي إلى تحديد النسب التي قد تتشابه مع آلاف النسب الأخرى، دون أن يعني ذلك أيّ توافق حقيقي في الأسلوب(268)..وقد أثبت التجارب النقدية المعتمدة على المنهج الأسلوبي الإحصائي خطأ ما ذهب إليه صلاح فضل وبخاصة تلك المقاربات التي اعتمدت نهج بوزيمان، وحاول الباحث سعد مصلوح «أن يردّ على اتهام منهجه بالقصور في تحليل الظواهر الأسلوبيّة في الخطاب الأدبي، وقد اتخذ عنوانا لمقاله جملة وردت على لسان صلاح فضل هي.. «المصادرة على المطلوب»(269) وله رد على صلاح فضل والمشككين في جدوى الدراسات الأسلوبيّة الإحصائية، وقد جاء هذا الرد في مقالة مطولة بعنوان الدراسة الإحصائية للأسلوب. بحث في المفهوم والإجراء والوظيفة»(270) واشتمل هذا البحث على أهم الطرق الإحصائية المستخدمة في الوصف، والتحليل الإحصائي وأكثرها شيوعا ما يلي :

I– مقاييس الوصف الإحصائي : (1) قياس كثافة المتغير الأسلوبي density :

ومثاله قياس كثافة نوع معين من أنوع الجمل (الاسمي/ الفعلي/ البسيط/المركب/ المعقد/ الإنشائي/ الخبري) ويتحقّق بقسمة عدد من النوع المراد قياسه على المجموع الكلّي لعدد الجمل المكون للنص ومن ذلك في العربية قياس كثافة المجاز density of metaphor بقسمه عدد المركبات المجازية على العدد الكلي للمركبات اللفظية المجازية وغير المجازية في Collocations النص.

2– قياس النسبة بين متغيرين أسلوبيين ratio : وذلك بقسمة تكرارات أحدهما على تكرار الآخر، ومن ذلك قياس نسبة الأفعال على الصفات (معادلة بوزيمان)، أو نسبة الجمل البسيطة إلى المركبة، أو نسبة المركبات المجازية إلى الحقيقة.

3– قياس النزعة المركزية للمتغيرات Centeral tendencies : وبيان ذلك أن تميّز نصّ أو منشيء ما باستخدام جمل طويلة مثلا لايعني انعدام الجمل القصيرة، بل كلّ مايعنيه أنّ ثمّة نزعة مركزيّة غالبة على استخدام الجمل الطويلة مع وجود إمكان محتمل لورود الجمل القصيرة بتكرارات أقل، وهكذا الأمر في رصد الخواص الأسلوبيّة الأخرى، وأهم مقياس النزعة المركزية، الوسط الحسابي arithmatic mean ، والوسيط medan والمنوال والوسط الهندسي geometrical mean.

4– قياس تشتت بيانات المتغيرات dispersion : حين تتفق النصوص في نزعة مركزيّة واحدة فإنّ ثمة احتمالات لإمكان التمييز بينها باستخدام التشتت، أي قياس الدرجة التي تتجه بها البيانات الرقمية للإنتشار حول قيمة وسطى. ومن أهم مقاييس التشتت. المدى range، والتباين Variance أوالانحراف المعياري Standard deviation.

5– قياس التوزيع الاحتمالي للمتغيرات Probilistic distribution: ويقصد به قياس تكرارات متغيّر أسلوبي ما (وليكن المغيّر (أ) بوصفه واحدا من أبدال متاحة (وليكن) (أ، ب، ج ، ...ف) في ارتباط بمقام معين. وسيأتي مناقشة النموذج الرياضي الّذي يمكن الاحتكام إليه في وصف الأسلوب عند تعدّد الاحتمالات.

6– قياس معامل الإرتباط بين المتغيرات : ومثاله قياس ارتباط الحدوث بين متغيرين أسلوبيين (كالارتباط بين طول الجملة والبساطة أو التركيب فيها) أو بين متغيرات أسلوبية معينة ومتغيرت المقام (كالارتباط بين طول الجملة والإختلاف الوسط الناقل media أو بينه وبين اختلاف شكل النص بين الترقية والرسالة البريدية) أو بين المتغيرات الأسلوبيّة والأحكام النقدية التقويمية (كالارتباط بين طول الجملة أو تنوّع المفردات والحكم بصعوبة الأسلوب [271].يشمل مقال سعد مصلوح عناصر إجرائية بالغة الأهمية في الدراسات الأسلوبيّة الإحصائية يمكنها تقديم نتائج ثريّة وموضوعية بعيداً عن الارتجال والعشوائية التي كادت تطغى على الدرس النقدي العربي.

يلح بعض النقاد العرب على توظيف الإحصاء في تحليل الخطاب الأدبي والشعري بخاصة، لأن إحصاء الوقائع الأسلوبيّة والشعريّة في النّص يؤدي إلى نتائج إيجابية، فهذا محمد العمري يقول : «يعتبر الكم في حد ذاته عاملا من عوامل

البروز والظهور، فالمواد التي تتكاتف بشكل غير عادي بالنسبة لمستعمل اللغة كفيلة بإثارة الانتباه بكميتها نفسها، إذ القاري الناقد هو نفسه معيار للإنزياح، غير أنّ هذه النظرة التي تتبناها أسلوبية الأثر تهمل التوازنات الخفيّة التي يقتضي اكتشافها دراسة لغوية إحصائية دقيقة، وهي توازنات شعرية، في نظرنا، ما دامت تخترق معيار اللغة في اتجاه المضارعة، ثمّ أنّ ما يعيه القاريء هو ما يدخل ضمن قراءته الخاصة، وهي نسبية، ومهما شعرنا لأنفسنا من إمكانية اعتماد الأثر والحدس كموجهين نحو مظان الشعرية، فإنّ تحصيل قدر أوسع من النتائج الإيجابية رهين بالتحليل اللغوي النصّي الذي يلعب الإحصاء دورا في اختبار نتائجه أو في كشف قضاياه من أساسها.»[272]، وقد قام الباحث بإحصاء كثير من الظواهر الأسلوبيّة في تحليله الخطاب الشعري، كما قام الباحث إبراهيم أنيس[273] بإحصاء أصوات عشرات من سور القرآن ثم حصر نسبة شيوع الأصوات، وذلك في إطار اختبار نظرية الشيوع ثم استعمل نتائجه في دراسة الشعر، كما أحصى بحور الشعر التي استعملها كثير من الشعراء العرب وخرج في كثير من الأحيان بنتائج علمية مقنعة إن لم نقل يقينية.

كما أحصى الباحث كَنْتنو [274] ثلاث سور قرآنية تحوي كلّ واحدة منها مائتي كلمة أي ما مجموعه 600كلمة. وحاول تقديم شروح لها، غير أنّنا نعتقد بأنّ المعرفة العميقة والواسعة بأسرار اللغة المنشأ فيها الخطاب المدروس تبقى المفتاح الأساس الذي يسعف في إدراك المعنى.

وقد قام الباحث «علي حلمي موسى» بإحصاء شامل لتردد الحركات والمدّ في القرآن الكريم معتمدا على الحاسب الإليكتروني «الكومبيوتر» وقد استغل محمد العمري نتائج هذه الإحصاءات في دراسته لتحليل الخطاب الشعري، ووصل الباحث إلى نتائج حدّد من خلالها تراكم العناصر المتردّدة في الخطاب الشعري، وبخاصة الظواهر الصوتية والدلالية[275]. ذلك أنّه لتواتر الأصوات وطرائق تشكيلها في الخطاب إيحاءات دلالية وتأثير على المتلقي.

لقد شغلت الدراسات النقدية العربية بالإحصاء منذ القديم يذكر صاحب: «كتاب المباني في نظم المعاني» الف في 425هـ: «أن الحجاج بن يوسف جمع القراء والكتبة فعدوا له جميع آي القرآن وكلامه وحروفه، وكان بذلك في القرن

الأول الهجري، وكان غرض هذا الإحصاء توثيقا. وقد شاعت ظاهرة الإحصاء واستفادت منها بعض الدراسات القرآنية»[276]. وإذا كانت إرهاصات البحث الأسلوبي الإحصائي عند البحاثة العرب منذ القدم، فقد تعزّز هذا الاتجاه في الدراسات الحديثة، وأصبحت له أسس وضوابط علمية يقوم عليها، ومن رواد هذا الاتجاه في الدراسات الأسلوبيّة العربية الحديثة الناقد سعد مصلوح ومحمد الهادي الطرابلسي، وهناك دراسات متناثرة هنا وهناك في المجلات لباحثين آخرين أشير إليهم في مواطن أخرى من هذا البحث.

قدم الباحث سعد مصلوح دراسة قيمة في مجلة «عالم الفكر» حول: «الدراسة الإحصائية للأسلوب، بحث في المفهوم والإجراء والوظيفة» هذه المحاور الثلاثة المفهوم والإجراء والوظيفة تقع تحتها منظومة المشكلات النظرية والتطبيقية التي يثيرها الدرس الإحصائي للأسلوب. وهي البنية الأساسية التي يقوم عليها بحث سعد مصلوح ويفرعها إلى قضاياها الأساسية وهي:

1– مبحث المفهوم ويشمل:

1–1– الأساس النظري لفكرة الإحصائي الأسلوبي.

1–2– ماهية الأسلوب من المنظور الإحصائي.

2– مبحث الإجراء ويشمل:

2–1– المتغير الأسلوبي والخاصية الأسلوبيّة.

2–2– التشكيل الأسلوبي للمتغيرات اللغوية (أسلوبيات المقال).

2–3– أسلوبيات المقام.

2–4– التشكيل الأسلوبي وثلاثية: المقام / المعنى/ المقال.

2–5– التشخيص الأسلوبي.

2–6– المعالجة الأسلوبيّة الإحصائية للنصوص.

2–7– النماذج الرياضية للتشخيص الأسلوبي.

2–8– إطار عمل للتحليل الإحصائي الأسلوبي.

3– مبحث الوظيفة، ويشمل:

3–1– مفهوم المقياس الأسلوبي الإحصائي.

3–2– مجالات تطبيقية.

3–3– أنماط المقاييس الأسلوبيّة.

3–4– مبدأ شمولية المقياس الأسلوبي[277].

إن استثمار الاحصاء في تحليل الخطاب مهما كان جنسه يمكّن من دراسة الظواهر دراسة موضوعية، ذلك أنّه لا يخرج عن إطار الخطاب المدروس، ولا يقدّم قوالب جاهزة يمكن صبّها أو إطلاقها على أيّ خطاب آخر، ومن هنا تجدر الإشارة إلى إمكانية استثمار الإحصاء في التحليل الأسلوبي بهدف التوصل إلى نتائج موضوعيّة.